

# وسيلة حفظ الشعر الجاهلي في مرحلة إنشاده بين الرواية الشفوية والتدوين

---

الدكتور يوسف غيوة  
جامعة قسنطينة

---

✍ رواية الشعر الجاهلي قضية شائكة أثارت جدلا واسعا لما اكتنفها من غموض وما قام حولها من شكوك ظلت محل جهود دارسي الشعر العربي من قدامى ومحدثين ، وقد اجتهد من أجل معرفة حقيقتها عدد كبير من العلماء منذ فجر الدراسة الأدبية العربية واستطاعوا أن يحددوا المراحل التي مرت بها وهي عندهم ثلاث:

1-مرحلة الإنشاد

2-مرحلة الجمع

3-مرحلة التدوين

ويهمنا -في بحثنا هذا- المرحلة الأولى التي استمرت طيلة العصر الجاهلي، أي منذ عصر كبار الرواد من شعراء الجاهلية من أمثال زهير بن جناب الكلبي، ومهلل بن ربيعة التغلبي، وأبي دؤاد الإيادي، والمرقش الأكبر البكري وغيرهم ممن جعل العلماء بدايات نظم القصائد على أيديهم، إلى نهاية الجاهلية وبداية عصر النور الذي هل على العرب والبشرية جمعاء بنزول الرسالة المباركة على نبيينا محمد صلى الله عليه وسلم.

فهذه المرحلة الأولى إذن هي مرحلة إنشاد الشعر الجاهلي، التي شهدت عناية العرب به اتخاذه وسيلة لتخليد مآثرهم وبطولاتهم وأمجادهم وهو ما دفعهم إلى حفظه وتعليمه ناشئتهم.

وإذا كان أمر حفظه مفروغا منه، فإن وسيلة الحفظ ظلت محل جدل إلى يومنا، حيث رأى بعض الدارسين أن الرواية الشفوية هي وسيلة انتقال الشعر الجاهلي من جيل إلى جيل حتى وصل إلى عصر التدوين في القرن الثاني حيث دون في دواوين خاصة، ومجموعات عامة، بينما يرى فريق آخر أن معرفة العرب الجاهليين للكتابة، ومن ثم استعمالهم لها في أغراضهم، كانت بالضرورة محفزا لهم كي يكتبوا أشعارهم لأهميتها.

ويقف فريق ثالث موقفا وسطا بين أولئك وهؤلاء، حيث يرى أن العرب الجاهليين كانوا قد دونوا بعض أشعارهم، لكن الرواية الشفوية هي التي حفظت الشعر الجاهلي من التلف والضياع.

وقبل أن نلقي الضوء على آراء هؤلاء وأولئك، نرى أن من الجدير بنا أن

نتعرف على مكانة الكتابة في المجتمع الجاهلي، ومن ثم دورها في تقييد ما يخص حياتهم في المجالات الدينية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية. لا أحد ينكر وجود الكتابة لدى العرب في العصر الجاهلي، ولا أحد يستطيع دفع استعمال العرب لها في أغراضهم المختلفة، نزع هذا لأن ما بين أيدينا من دلائل مادية قاطعة تثبت ذلك، وأصح هذه الدلائل وأهمها في رأينا أمران: أما الأول فلا سبيل إلى الطعن فيه، أو حتى مناقشته، لأنه ببساطة أمر مقدس فهو كلام الله عزوجل، المنزل على نبيه صلى الله عليه وسلم فقد وردت آيات كريمة عديدة تثبت معرفة عرب الجاهلية للكتابة، واستعمالهم لها في بعض أغراضهم الهامة، ومن هذه الآيات قوله عزوجل (يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه وليكتب بينكم كاتب بالعدل ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله فليكتب وليملل الذي عليه الحق وليتق الله ربه ولا يبخس منه شيئاً) (1).

وقوله تبارك وتعالى: (قويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً فويل لهم مما كسبت أيديهم ويويل لهم مما يكسبون) (2).

وقوله عزوجل: (ن والقلم وما يسطرون) (3) وقوله سبحانه وتعالى: (اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم) (4).

وهذه الآيات التي بها ذكر القلم والكتاب والزبر وغيرها من وسائل التقييد والتدوين، أكثر من أن يتسع لها هذا البحث، وحسبنا ما قدمنا، فهو دليل لا يرقى إليه الشك على معرفة العرب في جاهليتهم للكتابة واستعمالهم لها في أمور حياتهم.

أما الأمر الثاني الذي نجد فيه دليلاً ماياً على معرفة عرب الجاهلية للكتابة، واستعمالهم لها في أغراضهم الهامة، فهو الشعر الجاهلي نفسه، وما يتضمن من إشارات أو نصوص صريحة تثبت استعمال الجاهليين للكتابة في

1-سورة البقرة، الآية 282

2-سورة البقرة، الآية 79

3-سورة القلم، الآية 01

4-سورة العلق، الأيتان 4,3

## ● وسيلة حفظ الشعر الجاهلي

أمور حياتهم الخاصة والعامة وهو كثير، نجد أن من العبث أن نستعرضه جميعاً في هذا البحث، ومن ثم سنقتصر على بعضه الذي نرى فيه الدليل القاطع على ما نذهب إليه.

ومن هذا اللون قول المرقش الأكبر:

الدار قفر والرسوم كما ●● رقص في ظهر الأديم قلم (5)

ومن هذا اللون كذلك قول لبيد بن ربيعة العامري:

وجلا السيول عن الطلول كأنها ●● زبر تجد متونها أقلامها (6)

ومن هذا اللون كذلك قول امرئ القيس بن حجر الكندي:

لمن طلل أبصرته فشجاني \*\*\* كخط الزبور في العسيب اليماني (7)

ومنه قوله أيضاً:

أتت خجج بعد عليها فأصبحت ●● كخط زبور في مصاحف رهبان (8)

هذا فيما يخص القلم والزبر والخط والمصاحف. أما فيما يتعلق بالكتابة والكاتب والكتاب، فإن الأشعار التي تضمنت مصطلحاتها كثيرة نكتفي بذكر بعضها كقول سلامة بن جندل:

لمن طلل مثل الكتاب المنمق ●● خلا عهده بين الصليب فمطرق

أكب عليه كاتب بداوته ●● وحادثه في العين جدة مهرق (9)

وقول الأحنس بن شهاب التغلبي:

لابنة حطان بن عوف منازل ●● كما رقص العنوان في الرق كاتب (10)

ومن هذا الضرب كذلك، الذي به أمارات جليلة تدل على استعمالهم للكتابة في كثير من أغراضهم، الأشعار التي بها ذكر العهود والمواثيق منها قول الحارث بن حلزة الذي قال في شأن بكر وتغلب:

---

5- أبو عثمان الجاحظ البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام هارون 1/ 375 ط، الخالجي 1975.

6- أبو جعفر أحمد بن محمد النحاس - شرح الفوائد التسع المشهورات، تحقيق أحمد خطاب، 1/ 368 ط دار الحرية، بغداد 1973.

7- امرؤ القيس بن حجر - ديوان امرئ القيس، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ص 8 ط دار المعارف، مصر ط 1969.

8- المصدر السابق ص 89.

9- سلامة بن جندل - ديوان سلامة بن جندل، تحقيق الأب شيخو، ص 05 - ط بيروت 1910.

10- أبو جعفر النحاس - شرح الفوائد التسع المشهورات، تحقيق أحمد خطاب 2/ 580.

واذكروا حلف ذي المجاز وما ❶❶ قدم فيه، العهود والكفلاء  
 حذر الجور والتعدي، وهل من ❶❶ قض ما في المهارق الأهواء (11)  
 هذا بالنسبة للأدلة المادية المتمثلة في القرآن الكريم والشعر الجاهلي، أما  
 النصوص التراثية وأقوال العلماء وأحكامهم في هذا المجال، فهي لا تقل عما  
 قدمناه في المجالين السابقين، فإذا أخذنا مثلاً مسألة العهود والمواثيق، فإن  
 ذكرها ورد لدى كبار القدامى والمحدثين من الدارسين فقد تحدث عنها الجاحظ،  
 فقال: «كانوا يدعون في الجاهلية من يكتب لهم ذكر الحلف والهدنة تعظيماً للأمر  
 وتبعيداً من النسيان» (12) فالغرض لدى أبي عثمان بين، فالأمور الجليلة  
 والأحداث الجسام لا يعتمد فيها على الرواية الشفوية، ولا يطمئن العربي فيها  
 إلى الذاكرة، وخاصة إذا كانت نثرية مرسلة لا يقيد بها وزن أو قافية، مما يجعلها  
 عرضة للنسيان، من ثم كان لا مناص من اللجوء إلى تدوينها لضمان حفظها، لأن  
 الحلف أو الهدنة ليست من صفات الأمور، وليست من المسائل الشخصية التي  
 تعتقد بين الأفراد، وإنما هي أمور عظيمة تعقد بين القبائل يتقدمها السادة  
 النقباء وتشهد عليها جموع الفرسان والأشراف.  
 وقد تحدث عنها من المحدثين جماعة من كبار الدارسين، فالدكتور ناصر  
 الدين الأسد قال في شأن العهود والمواثيق والأحلاف: «ولعل الموضوع الثاني الذي  
 كانوا يكتبونه وكانوا حريصين على كتابته ما وسعهم الحرص، هو هذه العهود  
 والمواثيق والأحلاف التي يرتبطون بها فيما بينهم أفراداً وجماعات» (13).  
 أما الدكتور الطاهر مكي، فقد تحدث عن هذا الأمر في معرض كلامه عن  
 أسباب عزوف عرب الجاهلية عن تدوين أشعارهم، حيث صرح قائلاً: «فقصروا  
 تدوينهم على ما اقتضته الضرورات الاجتماعية والإقتصادية من الصكوك  
 والعهود والأحلاف والمواثيق» (14).

- 11- أبو زكريا التبريزي - شرح الفضليات - تحقيق علي محمد البجاوي - 2 / 750 - ط، دار نهضة مصر - د.ت.
- 12- أبو عثمان الجاحظ - الحيوان، تحقيق عبدالسلام هارون 1 / 69 - ط مصطفى السابري الحلبي، طبعة ثانية - مصر 1665 - 1969.
- 13- د / ناصر الدين الأسد - مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية ص 65 - ط، سادسة - دار المعارف مصر 1972.
- 14- طاهر مكي - دراسة في مصادر الأدب، ص 17، ط 4، دار المعارف مصر 1977.

## ● وسيلة حفظ الشعر الجاهلي

بينما يذكر باحث آخر هذه العهود والمواثيق، وهو الدكتور إبراهيم عبدالرحمن الذي يتناول هذه المسألة ضمن حديثه عن الدواعي التي دعت العرب في الجاهلية إلى تعلم الكتابة والقراءة، فقال: «فقد قامت بينهم وبين الأمم المجاورة، وخاصة الفرس والروم، صلات سياسية واسعة، دعتهم إلى تعلم لغات هؤلاء وأولئك، كما دعتهم إلى تعلم القراءة والكتابة لتسهيل هذه الصلات وكتابة مواثيقهم ومعاهداتهم» (15).

نستطيع أن نستخلص مما تقدم أن الكتابة عند عرب الجاهلية كانت تحتل مكانة ملحوظة، وأن موضوعاتها كانت متعددة، وأدواتها ووسائلها معروفة لدى عامة الشعراء، وعلى أقل تقدير لدى عدد منهم، كما كانت معروفة لدى سادات القبائل وأشرافها، وبخاصة منهم من كان يفد على ملوك فارس والحبشة والروم وغيرهم، من أمثال الحارث بن كلدة وابنه النضر بن الحارث (16) وكذلك من كان على صلة بالديانات السماوية من العرب الذين اعتنقوا اليهودية أو النصرانية، أو اكتفوا بالإطلاع على كتبها عن طريق اتصالهم بالأخبار والرهبان، وهم من الكثرة مما يجعل رصدهم وإحصاءهم أمراً غير معقول في عمل محدود كهذا.

فإذا كانت الكتابة على هذه الصورة لدى عرب الجاهلية، وأثناء إنشاد الشعر الجاهلي فإلى أي حد استغل العرب أولئك معرفتهم لها؟ وهل استعملوها في تدوين أشعارهم وحفظ أهمها على أقل تقدير؟

أراء الدارسين المحدثين في رواية الشعر الجاهلي أثناء مرحلة إنشاده: تضاربت أراء الدارسين حول قضية رواية الشعر الجاهلي أو كتابته أثناء مرحلة إنشاده، وتفاوتت أحكامهم بين القائلين بالرواية الشفوية كوسيلة وحيدة في حفظ الشعر أثناء المرحلة الجاهلية ونقله إلى المراحل التالية والقائلين بكتابته وحفظه عن طريق تدوينه أثناء مرحلة إنشاده، ثم الذين ذهبوا إلى القول بالمزاوجة بين تقييد بعضه -وهو قليل في نظرهم- ورواية بعضه الآخر وهو أغلبه لديهم رواية شفوية.

15- د / إبراهيم عبدالرحمن - الشعر الجاهلي، قضاياها الفنية والموضوعية، ص 25،

ط مكتبة الشباب، مصر.

16- المرجع السابق ص 25.

## 1- أنصار المزوجة بين الكتابة والرواية الشفوية:

إذن نبدأ حديثنا عن فئات الباحثين بالفريق الأخير، الذي وقف موقف وسطا، ولم يشأ أن ينحاز إلى ترجيح رأي على آخر، حيث قبل بالدلائل المادية والاستنباطية التي تثبت استعمال العرب في الجاهلية لكتابة وخاصة في شؤونهم الهامة - والشعر من أهمها- كما قبل بالنصوص التي أثرت عن العلماء القدامى، تخبرنا بأن الشعر الجاهلي لم يعرف في مرحلة إنشاده من وسيلة لحفظه غير الرواية الشفوية، تؤيدها هذه الأشعار التي تدل على ذلك والتي سيأتي ذكرها في حينها.

ويأتي في مقدمة هذا الفريق المستشرق العلامة كارل بروكلمان، الذي قال في هذا الصدد: «ولعل عباد الحيرة النصرانيين كتبوا جانباً من أشعار شعرائهم أيضاً بهذا الخط...»

ولكن بديها أن الكتابة لم تقض قضاء كلياً على الرواية الشفوية» (17)، فالمستشرق الألماني يحصر إمكانية كتابة جزء من شعر الجاهليين في فريق منهم هم: «عباد النصرانيين، وهؤلاء إن فعلوا فإنهم إنما حصروا اهتمامهم في شعر أبناء دينهم، وليس شعر شعراء الجاهلية جميعاً، هذه واحدة.

أما الأخرى فإن المستشرق الكبير ترك مجالاً للرواية الشفوية، التي بقيت في رأيه تلعب دورها في حفظ الشعر الجاهلي ونقله إلى الأجيال اللاحقة.

وهناك باحث عربي كبير يكاد يتفق مع كارل بروكلمان فيما ذهب إليه، وهو الدكتور الطاهر مكي، الذي يصرح قائلاً في هذا المعنى: «ولم تعد معرفة عرب الجاهلية للكتابة موطن شك، إن كثرة منهم في الحواضر، وقلة في البادية. كانت تقرأ وتكتب ولم يعد مناط اختلاف أن بعضاً من آثارهم الأدبية قد دون، لكنها أحاد لا تبرر التعميم، لأن الشعر أكثر ما يكون في البادية، والبادية أكثر ما تكون راحلة، وما يكتب في تلك الحقبة من التاريخ حجارة أو عظماً أو خشباً أو أديماً أو عسيباً، أو قماشاً، وكان أندرها وأغلاها ثمناً لا يتهياً نقله في سهولة، فقصروا تدوينهم على ما اقتضته الضرورات الاجتماعية والاقتصادية 1

17- كارل بروكلمان - تاريخ الأدب العربي - ترجمة د / عبدالحليم النجار - 1 /

من الصكوك والكتب الرسبية، والفنيل من الشعر، أما كثرته الغالبة فكان مجال حفظها الذاكرة والرواية» (18).

وخرج من حديث الدكتور الطاهر مكي بنتائج نراها تشكل جوهر فكرته، ونحدها فيما يلي:

1- التسييم أحدث العربي الكبير معرفة العرب في الجاهلية للكتابة، وبخاصة منهم أبناء الحواضر.

2- مادون من آدابهم يسر لا يعند به وذلك لأسباب حددها الباحث في كون الشعر إنما يكون في البداية، أو أغلبه هناك، ولما كانت هذه تحيا على الترحال وانتقل من مكان إلى آخر حسب توفر الماء والكلاء، ولما كانت وسائل الكتابة ما زالت في أغلبها بدائية لا يتهيأ نقلها في يسر، فإن العرب الجاهليين قصروا استعمالها على أغراض ضرورية لا غنى لهم عن تدوين أمورهم، كالعهود والأحلاف والصكوك، والكتب الدينية، وغير ذلك مما يصعب حفظه في الذاكرة، وبقه إلى الأحيال الجديدة عبر الرواية الشفوية.

فالدكتور الطاهر مكي لم يشأ أن يرسل حكمه دون تحليل، أو تحديد الأسس التي بناء عليها. وهو بعد هذا وذاك يتفق مع سلفه كارل برو كلمان في الفكرة القائلة باعتماد عرب الجاهلية في حفظ أشعارهم على الرواية الشفوية مع التسييم باستعمالهم للكتابة غير أن الرجيين يختلفان في مواطن الاستعمال، فبينما يذهب الباحث المستشرق إلى تحديد بعض أشغال النصارى كمادة للتدوين، الذي قام به عباد ملتهم بالحيرة، يرى الباحث العربي أن الكتابة التي كانت عزيزة في ذلك الزمن، استعملت في مجالات أخرى لا تفيد فيها الرواية الشفوية.

## 2- أنصار الرواية الشفوية كوسيلة وحيدة لنقل الشعر الجاهلي

### في مرحلة إنشاده:

أما الفريق الثاني من الباحثين فإن أصحابه يرفضون أن يكون للكتابة أي دور في حفظ الشعر الجاهلي طيلة مرحلة إنشاده ونقله إلى العلماء الرواة الذين قاموا بتدوينه في القرن الثاني الهجري، ويأتي على رأس هذا الفريق

الدكتور شوقي ضيف، الذي يجتهد من أجل إستنباط أدلته التي يدعم بها فكرة الرواية الشفوية واقتصار دور حفظ الشعر الجاهلي في مرحلة إنشاده عليها، من القياس على مسألة جمع القرآن الكريم ثم الحديث النبوي الشريف وفي هذا المعنى يصرح قائلاً: «وإذا كان القرآن على قداسته لم يجمع في مصحف واحد إلا بعد وفاة الرسول، وبعد مشاورة بين أبي بكر رضوان الله عليه والصحابة، فذلك وحده كاف لبيان أن العرب لم تنشأ عنهم في الجاهلية فكرة جمع شعرهم أو أطراف منه في كتاب، إنما نشأ ذلك في الإسلام وبمرور الوقت، أما في الجاهلية فكانوا يعتمدون فيه على الرواية وكان الشاعر يقف فينشد قصيدته، ويتلقاها عته الناس ويروونها».

ومعنى ذلك أن النهر الكبير الذي فاض بالشعر الجاهلي إنما هو الرواية الشفوية، ويدل على ذلك أقوى الدلالة أن الحديث النبوي ظل في أغلب أحواله يعتمد على الرواية والمشافهة إلى نهاية القرن الأول للهجرة، وإذا كان الحديث بما له من قدسية لم يعمدوا إلى تدوينه تدويناً عاماً إلا بعد مرور نحو قرن على الهجرة الشريفة فأولى أن يكونوا قد تبعوا ذلك في الشعر الجاهلي» (19).

إن موقف الدكتور شوقي ضيف واضح لا يحتمل تأويلاً، ولا يقبل جدلاً، فالعرب في رأيه أصحاب تقاليد ثابتة في نقل أشعارهم من جيل إلى جيل بل في تراثهم أياً كانت قيمته الروحية والوجدانية، وأياً كانت قدسيته ومن ثم فإن المنطق يقضي أن يكون الشعر قد تنقل من الجاهلية إلى ما تلاها من العصور عن طريق الرواية الشفوية وحدها.

إن هذا الموقف من الدكتور شوقي ضيف لم يأت نتيجة دراسة عميقة خص بها هذه القضية، وإنما بناه على قياس - كما أسلفنا - ضمن دراسة شاملة خص بها الأدب الجاهلي جميعاً، ومن هنا لم يشأ أن يطنب ويتوسع كثيراً فيبحث مسألة الرواية الشفوية، بل اطمأن إلى استنباطه ذلك فبنى عليه حكمه النهائي في حق هذه المسألة.

19-دكتور شوقي ضيف - تاريخ الأدب العربي، العصر الجاهلي، ص 141 - ط سادسة دار المعارف، مصر، د.ت.

## ● وسيلة حفظ الشعر الجاهلي

وهذه السمة التي اتسم بها حكم الدكتور شوقي ضيف لم تنقص منه شيئا ولم تضعف من موقفه، الذي ذاع ذيوعا ملحوظا في أوساط الدراسة الأدبية حيث نجد له أصداء في بعض منها، كما هو الشأن في دراسة الدكتور إبراهيم عبدالرحمن التي خص بها الشعر الجاهلي، والتي تناول فيها قضية رواية هذا الشعر وتدوينه، وتوصل من خلال ذلك إلى بناء حكم حاسم في حق هذه القضية قد يكون أكثر صرامة وحدة من حكم سلفه، الدكتور شوقي ضيف قال في هذا الصدد: «أما المرحلة الأولى فنريد بها تلك الفترة الغامضة من تاريخ هذا الشعر، فترة العصر الجاهلي التي كانت الرواية الشفوية فيها وسيلة الجاهليين إلى رواية أشعارهم وحفظها، وعن طريق هذه الروايات الشفوية وحدها وصل إلينا قدر كبير من قصائد نثر ومقطعاته، تلك التي ظفرت بعناية رواة القرن الثاني الهجري الذين نشطوا إلى جمع نصوصه وشرحها وتدوينها» (20).

فالدكتور إبراهيم عبدالرحمن يقطع شوطا آخر في طريق حسم الموقف لصالح الرواية الشفوية، حيث يجعلها الوسيلة الوحيدة في حفظ الشعر الجاهلي وانتقاله إلى عصر التدوين، وهو ما يشكل اختلافا جذريا مع حكمي كل من برو كلمان والدكتور طاهر مكي، إذ ينفي أن يكون للكتابة أي دور في هذا المجال، علي الرغم من تسلميه بمعرفة عرب الجاهلية للقراءة والكتابة «لا في اللغة العربية وحدها وإنما في اللغات القديمة التي كانت معروفة على أيامهم، كالعبرية والسريانية والفارسية» (21).

هذا على الرغم من اطلاعه على دراسة موسعة، شاملة تناولت هذا الموضوع لكنها إتخذت مسارا مناقضا للمسار الذي اتخذته دراسته، أو قل إنها انتهت إلى نتائج مناقضة لما انتهت إليها جهوده.

هذه الدراسة هي دراسة الدكتور ناصر الدين الأسد عن مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية، والتي وقف من خلالها صاحبها موقفا مخالفا لمواقف الفريقين السابقين.

---

20-دكتور إبراهيم عبدالرحمن - الشعر الجاهلي، قضاياها الفنية والموضوعية - ص 75.

21-المرجع السابق ص 109.

### 3- أصحاب الرأي القائل الشعر الجاهلي في مرحلة إنشاده:

إذن وقف الدكتور ناصر الدين الأسد موقفا مخالفا للفريقين السابقين، ومن ثم فهو يقف في مقدمة الفريق القائل بتدوين الشعر الجاهلي منذ مرحلة إنشاده، وأن الكتابة كانت وسيلة تدوين هذا الشعر، ومن ثم إنتقاله إلى العصور التالية التي شهدت جمعه وتدوينه في المجموعات والدواوين التي بين أيدينا في عصرنا الحالي.

لكن الدكتور الأسد لم يصدر حكما يشمل قضية تدوين الشعر الجاهلي بشكل شامل، ولم ينظر إليها بمنظار واحد بل فصل بين أمرين هما: تقييد بعض الأشعار في حركة ضيقة، وكتابتها بشكل أوسع يتجاوز مقدار التقييد إلى التدوين.

والمسألة الأولى -التقييد- مفروغ منها لدى الدكتور ناصر الدين الأسد، شحذ لها ما تيسر له من دلائل وحجج منها: أدلة عقلية، استنباطية، ومنها أدلة صريحة مباشرة (22).

ومن الضرب الأول قوله: «وذلك أن عرب الجاهلية هؤلاء الذين كانوا يقيدون بالكتابة دينهم ورسائلهم وعهودهم وصكوط حسابهم وسائر ما قدمناه في بحثنا عن موضوعات كتاباتهم لا يصح في الفهم أن يقيدوا كل ذلك من أمورهم: -دقيقها وجليلها، صغيرها وكبيرها، حقيرها وعظيمها- ثم يهملوا تقييد شعرهم، والشعر عندهم كما هو معروف متداول في الذروة العليا من القيمة والخطر، اذ هو ديوان أمجادهم وأحسابهم وسجل مفاخرهم ومآثرهم. فإذا كانت انقباض تقييد عهودها ومواثيقها - كما مر بنا- أفليس من الطبيعي إذا أن تقييد شعر شعرائها الذين يدافعون به عن حياضها، ويؤدون به عن أمجادها ويسجلون به وقائعها وأيامها ويعدون فيه انتصاراتها ومآثرها؟» (23).

ويخلص بعد ذلك إلى هذا التساؤل: «فإذا كان أمر الشعر بهذا الخطر للممدوحين فهل كان ملوك الحيرة، وملوك غسان، وأشراف المدينة والطائف

22- د / ناصر الدين الأسد - مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية ص 108.

23- المرجع السابق ص 109

## ● وسيلة حفظ الشعر الجاهلي

وساداتها وأثرياءها وسادات نجران واليمن، هل كان أولئك لا يقيدون ما يمدحون به من الشعر مع أنهم كانوا يقيدون سائر أمورهم؟» (26)

فانتشار الكتابة على نطاق واسع، واستعمال العرب لها في جميع أمورهم عامل قوي لدى هذا الباحث في تدوين الشعر أثناء مرحلة إنشاده يدعم هذا الرأي مكانة الشعر في حياة عرب الجاهلية.

أمر ثان يرى فيه الدكتور الأسد عاملاً قوياً لتقييد الشعر في تلك المرحلة، هو ما يعود به ذلك على الشاعر المادح نفسه من نفع أولاً، ثم ما يتحملة من أجل الوصول إلى الممدوحين من مشاق، وما يلاقيه في سبيل ذلك من أهوال من أجل نيل العطاء والفور بالجائزة التي تعني في غالب الأحيان نهاية متاعبه المادية، وصمان رزقه ورزق عياله.

ويختتم حديثه عن هذا الأمر، الذي يجسد قيمة الشعر لدى الممدوح والمادح على السواء، بتساؤل جاء فيه «أليس عجيباً بعد ذلك ألا يعني الشاعر وهذه قيمة الشعر عنده بأن تحفظ الكتابة شعره أو بعضه؟ وسيشتد العجب إذا علمنا أن بعض الشعراء لم يكونوا في حاجة إلى أن يتلمسوا الوسائل البعيدة لكتابة شعرهم ويتطلبوا من يكتبه لهم لأنهم كانوا هم أنفسهم يحسنون الكتابة ويتقنونها» (27).

ودعماً لفكرته هذه يقدم الباحث قائمة بأسماء شعراء الجاهلية الذين وردت دلائل على معرفتهم للكتابة من أمثال عدي بن زيد العبادي، الذي عمل كاتباً ومترجماً بديوان كسرى: ثم المرقش والربيع بن زياد -أحد الكلمة- والنابغة الديباني وغيرهم ممن لا يتسع لهم هذا البحث (28).

ولا يكتفي الدكتور الأسد بالعاملين السابقين لإثبات ما ذهب إليه، بل يضيف إليهما عاملاً ثالثاً يرى فيه محفزاً آخر لكتابة الشعر، وهذا العامل يتمثل في المعاناة التي يلاقيها الشاعر في نظم شعره والجهود التي كان يبذلها

---

24- أبو عثمان الجاحظ - البيان والتبيين، تحقيق عبدالسلام هارون - 4 / 41.

25- أبو فرج علي بن الحسين الأصفهاني - الأغاني، 2 / 180، ط دار الكتب المصرية.

26- د / ناصر الدين الأسد - مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية، ص 112.

27- المرجع نفسه ص 113.

28- المرجع نفسه ص 114 - 116.

من أجل تنقيحه وتصحيحه، ويضرب مثلاً بالشعر « الحولي المحكك » مستعملاً كل ما حضره من شواهد تدعم فكرته على كد بعض الشعراء في سبيل تقويم أشعارهم، وبخاصة شعراء مدرسة أوس بن حجر وزهير بن أبي سلمى سواء أكانت تلك الشواهد شعراً به ذكر لذلك الجهد أم شهادات لعلماء قدامى من أمثال الجاحظ وابن فارس.

ويخلص إلى هذا التساؤل الذي يجعله مدخلاً إلى إصدار حكمه في هذه المسألة حيث يقول: « وهل يصح بعد هذا أن نذهب إلى أن هؤلاء الشعراء الذين كانوا يصنعون الشعر صناعة، بل يصنعونه تصنيعاً، ويعرفون من بحوره وقوافيه ولغته وإعرابه ما لا يكتسب إلا بالتعلم والدراسة، هل يصح أن نذهب إلى أن هؤلاء الشعراء كانوا أميين ويستطيعون أن يقوموا بهذه العمليات المتراكبة فطرة وطبعاً، والشعر معلق في ذاكرتهم لا يعدوها؟ أحسب أن لا، وأحسب أن الأرجح أن هذا الضرب من الشعر المنقح كان يفرض عليهم أن يقيدوه على ما كانوا يملكون من صحف الكتابة » (29).

ثم يلحق بما تقدم عاملاً رابعاً هو معرفة بعض الشعراء بدقائق أمور الكتابة كالصنعة والتأنق فيها، وطبيعة الصحف المستعملة ومواصفاتها، إلى غير ذلك من الجزئيات التي لا تتأتى إلا للخبراء الذين سبروا أغوار الكتابة، وأحاطوا بأسرارها.

ينتقل بعد هذا الجهد إلى الأدلة الصريحة، من روايات ونصوص متناثرة على صفحات كتب التراث، فيجمعها وينظمها كما يصرح في شأن ذلك حيث يقول: « وننظمها الآن في سلك واحد لنرى أنها واضحة صريحة في أن بعض الشعر الجاهلي كان يقيد، سواء أكان الذين يقيدونه هم الشعراء الجاهليون أنفسهم بخط يدهم أم كان هؤلاء الشعراء يستكتبون غيرهم لتقييد شعرهم » (30).

ويلاحظ أمرين على هذه الروايات الأولى، أن أكثرها يشير إلى أن الشعر المقيد بالكتابة إنما هو رسائل كان يبعث بها الشاعر، مع الإشارة إلى أن هناك

29- د / ناصر الدين الأسد - مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية، ص 121.

30- المرجع نفسه ص 125.

ما يدل على أن بعض الشعر قيد بغرض الحفظ.

والثاني: أن هذه الرسائل الشعرية كانت أمراً مألوفاً في العصور الإسلامية وهي لم تصل إلى هذه الخاصة فجأة، بل تم لها ذلك بعد تطورات على مراحل، تمتد إلى العصر الجاهلي، وليس أدل على ذلك من هذه الأخبار الغزيرة التي نقلتها كتب التراث، تتحدث جميعاً عن رسائل شعرية إما بين بعض الملوك ومن كان على صلة بهم من الشعراء كالذي كان بين النعمان بن المنذر وكثير من شعراء زمنه كالربيع بين زياد العبسي (31).

والنابغة الذبياني (32)، وإما بين شعراء وشيوخ كانوا على علاقة إجتماعية أو أسرية معهم، كالذي حدث بين عدي بن زيد وأخيه، بعد أن طال سجن الأول في حبس النعمان بن المنذر (33)، وكالذي حدث بين لقيط بن يعمر الإيادي وقومه حين أرسل إليهم قصيدة ينذرهم غزو كسرى إياهم، فلما علم كسرى بالخبر قطع لسان الشاعر وغزا إياداً (34).

ويخلص الدكتور الأسد بعد ذلك كله إلى هذه النتيجة، التي يقررها قائلاً: «وذلك هو تقييد الشعر الجاهلي، وقد جمعنا ما استطعنا أن نعثر عليه من أدلة في صحف متفرقة تسنده، انتهت بنا كلها إلى ترجيح أن الشعر الجاهلي كان يقيد في صحف متفرقة لأغراض شتى» (35).

هذا فيما يخص تقييد الشعر الجاهلي، أما تدوينه: فإن أمره أخذ مجهود الباحث حيث أطنب فيه أيما إطناب، فقد خصه بتمهيد مطول، عرض فيه لانتشار الصحف في صدر الإسلام، وعدد المصطلحات التي كانوا يطلقونها على ما دون منها ثم استعرض المراحل التي عرفها تدوين المعارف الإسلامية من تفسير وحديث وفقه وسيرة ومغاز، لينتهي إلى تدوين الشعر على أيدي علماء

31- الشريف علي بن الحسين المرتضى، أمالي المرتضى - تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ط - 1/ 192، عيسى البابي الحلبي، مصر، 1954.

32- د/ عمر السوقي، النابغة الذبياني ص 188 ط رابعة دار الفكر العربي، مصر 1966.

33- أبو الفرج الأصفهاني الأغاني 2/ 118 ط دار الكتب

34- ابن الشجري عبدالله بن علي - مختارات إبن الشجري تحقيق علي محمد الجولي ط دار نهضة مصر - د.ت. وإبن فنية - الشعر والشعراء - تحقيق أحمد محمد شاكر، ط، ثلاثة 1977 - 205/ 1.

35- د/ نصر الدين الأسد - مصادر الشعر الجاهلي، وقيمتها التاريخية ص 133.

القرن الثاني الهجري الذين يمثلهم -في رأيه- أبو عمرو بن العلاء وحماد الراوية» (36)

أما سبب اختيار العاملين الراويين فإن الدكتور الأسد يبينه من خلال قوله «وسنتحدث عنهما هنا في أمر لا يعود هو أن نكشف عن أن عنايتهم بالشعر الجاهلي لم تكن مقصورة على دروس شفوية يتلقاها تلامذتهما من غير تدوين، وإنما كنا وغيرهما من النعماء يبلان إلى دواوين ومجموعات مكتوبة توارثها عن قتلهم» (37).

فببت القصيد إذن هو جوهر هذه الدواوين والمجموعات المكتوبة التي أخذ عنها هذا العالمان، فإذا كان الأمر كذلك فإن هذه الدواوين والمجموعات، وهل ورد ذكرها عند علماء القرن الأول ورواته؟ وهل عمن بها خلف -بني أمية الذين اشتهروا بعنايتهم بالشعر العرب، ومنهم من كان من كبار نقاد عصره وعلمائه بالشعر كعبد الملك بن مروان؟ وإذا كانوا قد علموا بها هل سعوا إلى اقتنائها وبثها في الناس؟

بلاجابة عن هذه الأسئلة يقدم الدكتور الأسد صائفة من الأخبار ومجموعة من النصوص نتحدث عن كتب ودواوين منسوبة إلى قبائل، أو إلى فئات من المجتمع الإسلامي، غير أن ما تتضمنه هذه الكتب وتلك الدواوين، وزمن تدوينها، والذين قاموا على صنعها أمور بجاهنتها تلك الأخبار والنصوص التي قدمها الدكتور الباحث وأشارت إليها إشارات لا نعني كثيرا في السعي إلى إظهار الحقيقة في هذا الحال.

ونتوقف مع الدكتور الباحث عند شخصية حماد التي نطمئن إليها كل الاطمئنان ويجزم بأن هذا العلم الراوية كان لديه مجموعة كتب تشتمل على شعر الجاهلية وأخبارها وأنسابها «بعضها كتبه بنفسه، وبعضه كتب من قبله فقرأه واستفاد منه في تدوين كتبه ويخبرنا بأن أبا حاتم السجستاني رأى بعض هذه الكتب ورجع إليه (38)، ولما وجد خبر أبي حاتم يتعارض مع رأي ابن النديم في هذا المعنى، عقب عليه في الهامش بقوله: «ولذلك كان عجيبا أن يقول

36- د / ناصر الدين الأسد - مصادر الشعر الجاهلي، وفصلها التاريخي 134 - 155

37- المرجع نفسه ص 155

38- أبو الفرج الأصفهاني - الأغاني 6 / 94 - ط دار الكتب

## ● وسيلة حفظ الشعر الجاهلي

ابن النديم « ولم ير لحمار كتاب، وإنما روي عنه الناس، وصنفت الكتب بعده، ففعل ابن النديم بمبصله شيئا من كتبه فابقى هذا بقول العام إلقاء » (39).

أما كتاب شعر الانتصار الذي أقحمه الباحث في هذا المجال فإن ما به من أشعار - إن وجد أصلا - وكما يفهم من عنوانه إنما بقيت في الإسلام، إذ لم يكن معقولا أن تحتج الانتصار أو تفخر بأشعار جاهلية، تتعارض في معانيها وأفكارها مع الروح الإسلامية، وأيا كانت طبيعة هذا الكتاب فإن الباحث نفسه يقر بأنه دون زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وبقيت الانتصار تجده كلمة خافت بلاه، كما يقر بأن ذلك حدث بأمر من الخلفية على إثر خصومة وقعت بين عبد الله بن الزبير وصرار بن الخطاب الفهري من جهة، وحسان بن ثابت من جهة ثانية (40)، فهذا إذن باعتراف الدكتور الأسد نفسه حدث في زمن عمر وبأمر منه - رضي الله عنه - وكانت مادته أشعار الخصومة التي وقعت بين الشعراء المشركين بمكة وشعراء المسلمين بالمدينة، وهذا كما هو معروف ومفروغ عنه إنما وقع بعد هجرة النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة المنورة.

أما مسألة ديوان النعمان الذي كان عبد الله بن أبي بني مروان، وكان به الأشعار التي مدح بها هو وأهل بيته، وهي رواية نقلها ابن سلام الجمحي (41) فإن أحدا من علماء التدوين وجماع الشعر لم ينقل عن هذا الديوان، ولم يقدم دليلا ماديا نطمئن إليه، ولو كان هذا الديوان وصل إلى بني مروان - ومكانة الشعر عندهم على ما نعرف - لكان حرصهم عليه وحشهم على نسخه أمرا له أثر في تاريخ الشعر العربي، وبخاصة المتأخرين من خلفائهم الذين عاصروا مرحلة التدوين.

أما خبر كتاب بني تميم الذي ذكره الشاعر الجاهلي بشر بن أبي خازم في قوله:

وجدنا في كتاب بني تميم ●● « أحق الخيل بالركض المعار » (42)

39- د/ نصر الدين الأسد - مصادر الشعر الجاهلي، وقيمتها التاريخية ص 157، وهامش رقم 4 منها.

40 المرجع السابق ص 158.

41 محمد بن سلام الجمحي - طبقات فحول الشعراء - تحقيق محمود محمد شاكر ص 23.

42 أبو زكريا يحيى التبريزي - شرح المفضليات 3 / 1191.

فإن أمره لا يختلف عن كتابي ثقيف وقریش سالفی الذکر، وإن کان وروده فی بیت لشاعر جاهلی لم یدرک الإسلام یثبت حقیقة علی الأقل، هی أنه کان موجودا فی الجاهلیة، وهذا علی افتراض صحة البیت لکن مادته تبقى أمرا غیر معروف.

وعبثا نحاول تتبع شواهد الدكتور ناصر الدین الأسد فی هذا الباب، لأن هذا البحث یضیق بها، غیر أن المحصلة التي استخلصها من بحثه ومن تلك الأخبار والنصوص، لا تعکس - فی رأینا - هذا الحسم، وهذا الاطمئنان وهذه الشمولية التي طبعت حکمه، فلیس بتلك الشواهد ما یتیح له المضي فی السبیل الذي اختاره، لأن أغلب تلك النصوص منقولة من بيئة إسلامیة أبطالها شخوص إسلامیة، تتحدث عن مدونات وكتب هی بین أمرین، إما غامضة، لا تستطيع تعرف طبعتها أو زمن کتابتها ومن قام علی تدوینها، وإما هی مکتوبة فی العصر الإسلامی من ثم لا نرى ما یبرر هذه النتيجة التي انتهى إلیها بحث الدكتور ناصر الدین الأسد فی هذا الموضوع، وهی التي عبر عنها بقوله: «أماننا إذن، فی هذه النصوص والروایات شعر جاهلی وأخبار جاهلیة مدونة كلها فی كتب وأسفار ودواوین من الجاهلیة نفسها» (43).

هذا ما انتهت إلیه جهود الدكتور ناصر الدین الأسد فی دراسته العلمیة القیمة، ولعل أهم ما بها مما یعنینا فی بحثنا هذا أمران. الأول: الأحکام التي أصدرها بناء علی النتائج التي استخلصها فی حق هذه القضية.

الثانی: الأدلة التي استند إلیها فی إصدار أحكامه تلك ونتوقف عند الأمرین معا، لنتعرف علی طبيعتهما ومميزاتهما. طبیعة أحكام الدكتور ناصر الدین الأسد فی قضية رواة الشعر ومميزات الأدلة التي استند إلیها:

فأما الأحکام التي أصدرها فی حق هذه القضية فإنها اتسمت بسمتین: الأولى: إنها كانت نتيجة بحث، و خلاصة جدل أقامه الباحث حول نصوص وأخبار تناولت هذه القضية وهی تعود إلی العرب الجاهلیة، أو إلی العلماء والرواة

الذين عرفهم القرنان، الأول والثاني الهجريان.

أما الثانية: فإن تلك الأحكام جاءت مطلقة يطبعها الحسم الذي يعبر عن إيمان الباحث بصحة نهجه وصواب رؤيته، واطمئنانه إلى النصوص التي استخلص منها تلك الأحكام الصادرة في حق هذه القضية.

أما الأدلة التي قدمها، فإن منها الصريح الذي لا يقبل الطعن، سواء أكان شعرا كرسالة لقيط بن يعمر التي بها ما يثبت أن القصيدة إنما أرسلت مكتوبة، مثل قوله:

سلام في الصحيفة من لقيط ❀❀ إلى من بالجزيرة من إياد  
وقوله الذي ختم به القصيدة التي بعث بها، وهي لا تتضمن البيت السابق كما هو بديهي:

هذا كتابي إليكم والنذير لكم ❀❀ لمن رأى رأيه منكم ومن سمعا (44)  
فكلمة «الصحيفة» وكلمة «كتابي» لا تتركان مجالا للشك في طبيعة هذه الرسالة، أم كان ذلك خبرا، كالذي يذكر عدي بن زيد العبادي، وتعلمه الخط العربي، ثم تعلمه الفارسية التي انتقل على إثرها إلى بلاط فارس ليصبح كاتباً ومترجماً به (45).

ومن الأدلة التي قدمها الدكتور الأسد، ما يحتمل تأويله جهين، وذلك أن الشاعر عندما يوجه كلامه إلى غيره مستعملا عبارات وصيغا مثل: «ألا أبلغ فلانا»، «ألا أبلغ فلانا عني رسالة»، «من مبلغ فلانا» فإن ذلك يكون إما كتابة، وإما شفاهة.

وعندما تتفحص الشواهد الشعرية التي قدمها الباحث على أنها تثبت كتابة الشعر في رسائل يبعث بها الشعراء إلى شخوص وقبائل، نجد أغلبها - إن لم تكن جميعها - خالية من الدليل الذي يبرز الحسم، والذي طبع أحكام الدكتور ناصر الدين الأسد في هذه القضية، فقول عمرو بن كلثوم الذي بعث به بإيالنعمان بن المنذر:

44- ابن الشجري عبدالله بن علي - مختارات ابن الشجري - ص 2 - 22.

45- أبو الفرج الأصفهاني - الأغاني 2 / 101 - ط دار الكتب.

ألا أبلغ النعمان عني رسالة ❖❖ فمدحك حولي وذمك قارح  
متى تلقني في تغلب ابنة وائل ❖❖ وأشياعها ترقى إليك المسالحي (46)  
لا يعني ما به أنه وصل إلى النعمان مكتوباً: لأن الرسالة تكون خطية،  
وتكون شفوية، وقول سلامة بن جندل الذي بعث به إلى صعصعة بن محمود بن  
مرثد الذي أسر أخاه أحمر بن جندل:

سأجزيك بالود الذي كان بيننا ❖ أصعصع إنني سوف أجزيك صعصعا  
سأهدي وإن كنا بتثليث مدحة ❖ إليك وإن حلت بيوتك لعلينا  
فإن يك محمود أباك فإننا ❖ وجدناك محمود الخلائق أروعا  
فإن شئت أهدينا ثناء ومدحة ❖ وإن شئت أهدينا لكم مائة معا (47)  
ليس به ما يشير إلى أن الشعر أرسل إلى صعصعة هذا، مكتوباً وقد نقل  
الخبر أبو عثمان الجاحظ بهذه الصيغة «وقال سلامة بن جندل هذه الأبيات وبعث  
بها إلى صعصعة بن محمود بن مرثد، وكان أخوه أحمر بن جندل أسيراً في يده  
فأطلقه له» (48)، فكلية «قال» لا تعني «كتب» ومن البديهي أن «بعث به»  
تحتل الوجهين: الكتابة والمشافهة.

الرواية الشفوية وسيلة حفظ الشعر الجاهلي:

إذن يتضح لنا مما تقدم أن الشعر الجاهلي انتقل في جله -إن لم يكن كله-  
عن طريق الرواية الشفوية وبواسطتها حفظ في مرحلة الإنشاد ثم تناقلته  
الأجيال، حتى وصل إلى مرحلة التدوين، حيث دون في المجموعات والدواوين  
التي وصلت إلينا من قبل علماء ثقافت من أمثال الأصمعي والمفصل الضبي  
وابن سلام وغيرهم.

أما الإشارات والنصوص التي تذكر كتابة بعضه، فإننا لا ننكرها وهي  
على وجودها بالقلّة والضالّة بمكان، بحيث من غير المعقول أنها كانت وسيلة  
حفظ الشعر الجاهلي، وهي كما قال الدكتور الطاهر مكي «أحاد لا تبرر التعميم»  
نزع هذا لأن الدراسة الأدبية منذ أزمنتها الأولى دأبت على اعتبار الرواية

46- ابن قتيبة - أبو محمد عبدالله بن مسلم - الشعر والشعراء تحقيق أحمد محمد

شاکر 1 / 234 دار التراث العربي، مصر 1977.

47- سلامة بن جندل - ديوانه ص 21.

48- أبو عثمان الجاحظ - البيان والتبيين 3 / 318 - والحيوان 3 / 70.

## ● وسيلة حفظ الشعر الجاهلي

الشفوية وسيلة انتقال الشعر الجاهلي إلى زمن تدوينه في القرن الثاني الهجري، وحفظت لنا أسماء الرواة من شعراء ورواة الشعراء، ثم محترفي الرواية، بينما لم تسجل من أمر الكتابة إلا القليل النادر، ولا يقوم التعليل الذي وجده الدكتور الأسد لعزوف العلماء من القدامى على ذكر كتابة الشعراء - نقل أشعارهم عن صحف مكتوبة كان يعد نقصا حرص العلماء على تجنبه- نقول إن هذا التعليل لا يعد سندا لفكرة تدوين الشعر الجاهلي في العصر الجاهلي.

### قنوات الرواية الشفوية:

وبحثا عن الحقيقة العلمية نحاول إلقاء الضوء على قنوات الرواية التي أوصلت الشعر الجاهلي إلى مرحلة التدوين، والدراسات الأدبية التي تناولت هذا الموضوع تكاد تتفق على أنها ثلاث: الشعراء الرواة - رواة الشعراء - رواة القبيلة.

يبدو أن الفئة الأولى كانت تضم جميع شعراء العصر الجاهلي، بحيث كان هذا العمل يعد مرحلة تحصيل لا مناص للشاعر من عبورها، قبل أن ينبغ ويستقل بشعره، ويحدثنا الدكتور شوقي ضيف عن ذلك التقليد الذي كان قاعدة لا يكاد يشذ عنها شاعر، فيقول: «فرواية الشعر في العصر الجاهلي كانت هي الأداة الطيبة لنشره وذيوعه، وكانت هناك طبقة تحترفها احترافا هي طبقة الشعراء أنفسهم، فقد كان من يريد نظم الشعر وصوغه يلزم شاعرا يروي عنه شعره وما يزال يروي له ولغيره حتى يتفتق لسانه ويسيل عليه ينبوع الشعر والفرن» (49).

ويتفق الدكتور الطاهر مكي مع الدكتور شوقي ضيف حتى إنه يستعمل الألفاظ نفسها في التعبير عن هذه الظاهرة، حيث يقول في شأنها «وقد اضطلع الشعراء أنفسهم بدور هام في الرواية، فكانت لهم المدرسة التي يتعلمون فيها صوغ الشعر ونظمه، والتمرس بأساليب الكلام وفنون القول، ومن أراد أن يصبح شاعرا لزم واحدا من فحولهم، يحفظ عنه ويروي له، ويترسم خطاه» (50).

49- د / شوقي ضيف - تاريخ الأدب العربي، ص 142.

50- د / طاهر مكي - دراسة في مصادر الأدب - ص 17.

وقد ذكر القدامى طائفة من الشعراء تخرجوا على أيدي أساتذة من زملائهم ورووا أشعارهم، فابن رشيقي يذكر أن الفرزدق كان راوية للحطيئة، وأن هذا كان راوية زهير، وهذا الأخير كان راوية أوس بن حجر والطفيل الغنوي، كما ذكر أن أمراً القيس -على سبقه وريادته لمجال الشعر- كان راوية أبي دؤاد الإيادي «ولا بد بعد ذلك أن يلوذ به في شعره، ويتوكل عليه».

كما ذكر أن كثير كان راوية جميل «إذا استنشد لنفسه بدأ بجميل، ثم أنشد ما يراد منه» (51) وذكر ابن قتيبة أن الأعشى كان راوية خاله المسيب بن علس (52).

ويعقب الدكتور إبراهيم عبدالرحمن على هذه الأخبار قائلاً: «وحيث نضم هذه الأخبار القليلة بعضها إلى بعض يتبين لنا أن هؤلاء الرواة كانوا طبقة بعينها من شعراء الجاهلية، هي طبقة الفحول الذين دار ذكرهم على ألسنة القدماء» (53).

لكن الدكتور ناصر الدين الأسد يعلن عن خلافه مع جميع من ذكرنا، ويرفض أن يكون هؤلاء الرواة من فحول الجاهلية، حيث يقرر في شأن الشعراء الرواة الذين لم يختصوا برواية شعر شاعر بذاته ما يلي: «ولهذه الطائفة من الشعراء قيمة في بحثنا هذا، إذ أنهم جميعاً من شعراء القرن الأول الهجري» يقصد الدكتور الأسد بقوله السابق كبار فحول القرن الأول الهجري، ومن هم دونهم فمن الفئة الأولى جرير والفرزدق ومن الفريق الثاني الطرماح وكثير ورؤبة وذو الرمة.

ومهما يكن أمر هؤلاء وأولئك، ومهما اختلف الدارسون في الشعراء الرواة فإن المتفق عليه أن الشعراء - أيا كانت درجاتهم، وأيا كانت عصورهم- كانوا يروون أشعار أسلافهم، ويأخذون عنهم، ويتخرجون من مدارسهم، يتناقلون أشعارهم شفاهة، ولم نجد أحداً من العلماء لذين نقلنا عنهم يذكر أن

51- ابن رشيقي القيرواني - العمدة - تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد 1 / 198 -

ط دار الجيل - بيروت - 1972.

52- ابن قتيبة - الشعر والشعراء 1 / 180.

53- د / إبراهيم عبدالرحمن - الشعر الجاهلي، قضايا الفنية والموضوعية ص 77.

أما القناة الثانية في نقل الشعر، فتتمثل في رواية الشعراء، وهي فئة تقل أخبارها في كتب التراث، بحيث لا تكاد تعثر إلا على القليل منها وحتى من وصلتنا أسماؤهم، صاحبها كثير من الغموض والاضطراب، واضطر الباحثون إلى تقديم افتراضات واستعمال الاستنباط من أجل الوصول إلى الحقيقة، فيما يخصهم.

فالقدا مي لا يكادون يذكرون من أمر هؤلاء إلا طائفة من رواية الأعشى، والمحدثون لا يجدون غير ما نقله القدا مي مادة لأبحاثهم حتى إن الدكتور الأسد راح يعدد أسماء رواية الشعراء الإسلاميين، فإذا جاء إلى رواية الشعراء الجاهليين لم يذكر إلا ثلاثة أسماء لرواية الأعشى أخذها من كتب التراث، وبعد دراسة وتمحيص خلص إلى أن الأسماء الثلاثة هي واحد، كان نصرانيا إسمه الأصلي يوهانس أو يوحانس ثم مر هذا الإسم بأطوار الترجمة والتعريب، فأصابه التحريف والاضطراب وأصبح ثلاثة أسماء: عبيد، يونس، يحيى (55)

ولم يستطع الدكتور إبراهيم عبد الرحمن إضافة شيء ذي بال إلى ما قدمه سلفه في هذا الأمر، بل نراه يشكك في وجود هؤلاء وينتقص من أدوارهم، حيث يقول معقبا على رواية الأعشى: «فإن الذي نريد إلى إثباته هنا أن هؤلاء الرواة إن وجدوا لم يكونوا معروفين لرواية الشعر في العصور الإسلامية المختلفة، مما يؤكد أن دورهم لم يكن ملحوظا في رواية الشعر الجاهلي مثل الطبقة الأولى (الشعراء الرواة)» (56).

أما الدكتور شوقي ضيف، فإنه يحسم الموقف، حيث ينكر وجود هذه الطبقة من الرواة في العصر الجاهلي، ويرى أنها لم تظهر إلا في نهاية العصر الإسلامي وبداية العباسي (57).

ونأتي إلى القناة الثالثة التي انتقل عبرها الشعر الجاهلي إلى عصر التدوين، والتي تتمثل في طبقة رواية القبيلة، وهي طبقة أوفر حظا لدى القدا مي من سابقتها، إذ ارتبط أمرها بمكانة الشعر لدى العرب في الجاهلية،

---

54- د / ناصر الدين الأسد - مصادر الشعر الجاهلي، وقيمتها التاريخية ص 255.

55- المرجع السابق ص 240 - 241.

56- د / إبراهيم عبد الرحمن - الشعر الجاهلي، قضايا الفنية والموضوعية ص 81.

57- د / شوقي ضيف - تاريخ الأدب العربي، العصر الجاهلي ص 148.

وهي مكانة صنعها دور الشاعر في حياة القبيلة فقد كان لسانها وحاميتها والذائد عنها، وفي أغلب الأحيان يكون سيدها وفارسها، كما يؤدي دورا تاريخيا وحضاريا، حيث كان يدون مآثر قومه ومفاخرهم، ويفخم من شأنهم، ويهول على أعدائهم، ويبث الحماس في مقاتليهم وأبطالهم (58).

وقد حظيت هذه المكانة باهتمام القدامى والمحدثين على السواء، قال ابن رشيق «كانت القبيلة من العرب إذا بلغ فيها شاعر أتت القبائل فهنأتها، وصنعت الأطعمة، واجتمع النساء يلعبن بالمزاهر، كما يصنعون في الأعراس، ويتباشر الرجال والولدان، لأنه حماية لأعراضهم، وذبح عن أحسابهم، وتخليد لمآثرهم وإشادة بذكرهم» (59).

أما المحدثون فقد تناولوا هذا الأمر في العديد من الدراسات، منها دراسة الدكتور يحيى الجبوري «الإسلام والشعر» التي ورد فيها قوله عن مكانة الشاعر في القبيلة: «كانت له المنزلة الفضلى في القبيلة، لأنه لسانها الذاب عنها، والمعبر عن فضائلها، المتغني بأمجادها، المخلد لمفاخرها وانتصاراتها» (60).

وهو كما ترى يحذو حذو سلفه القديم، لا يختلف عنه في المعنى ولا في اللفظ إنطلاقاً من هذا الإكبار والتقدير الذي كان يلقيه الشاعر في قبيلته، أقبل أبناء القبيلة على شعره يروونه ويحفظونه لصبيانهم، وقد ضرب الباحثون المثل في هذا الصدد بقصيدة عمرو بن كلثوم، حتي أخذ عليهم بعض خصومهم ذلك، فقد قال أحد شعراء بكر: (61)

ألهى بني تلعب عن كل مكربة ❖❖ قصيدة قالها عمرو بن كلثوم

يروونها أبداً مذ كان أولهم ❖❖ يا للرجال لشعر غير مسنوم

غير أن العلماء لاحظوا في هذا الصدد ملاحظتين:

الأولى: إن القبيلة لم تكن تشجع على ذبوع الشعر إلا إذا كان في مدح رجالاتها، وتخليد مآثرها، ومفاخرها، يقول الدكتور إبراهيم عبدالرحمن في هذا المعنى: «ولكن ينبغي أن نسارع إلى القول بأن هذه العناية قد انصرفت

58- أبو عثمان الجاحظ - البيان والتبيين 1 / 241.

59- ابن رشيق القيرواني - العدة 1 / 6.

60- د / يحيى الجبوري - الإسلام والشعر - ص 16 ط مكتبة النهضة بغداد 1964.

61- أبو الفرج الأصفهاني 2 / 54 ط دار الكتب.

## ● وسيلة حفظ الشعر الجاهلي

إلى أشعار بعينها تتصل بحروب القبيلة وانتصاراتها في أيامها المختلفة، وغير ذلك مما كان يسجل فخرا لها على أعدائها من القبائل الأخرى» (62).

ويمضي الدكتور الطاهر مكي في الاتجاه نفسه حيث يصرح قائلا: «القبيلة تحفظ من قصيدة شاعرها ما يعلي شأنها، ويسجل أمجادها، فإذا تعرض لحرب هزمت فيها تناست ذلك الشعر، أو ما يمسه منه على الأقل، روايتها له لا تجري على نسق واحد وإنما ترتبط بأعمار أفراد القبيلة وأمزحتهم، يحفظ منه الشباب ما كان غزلا يمس العواطف، ويردد الرجال ما كان حماسة تلهب المشاعر، ويتمثل الشيوخ ما كان حكمة ترضي العقل» (63).

فالدكتور مكي يجعل رواة القبيلة أكثر تخصصا، بحيث كل فئة تعنى بمجال معين وفق العمر، والدور الذي يناسب كل جيل من أجيال القبيلة، غير أن هذا الباحث لا يقدم نماذج يستأنس بها الباحثون في هذا المجال وهو النقص الذي تنبه إليه الدكتور ناصر الدين الأسد، فقدم لذلك، العديد من النماذج تمثلت في أخبار وروايات تدور حول ما كان يجري بمجالس حلفاء بني أمية بعامّة، ومعاوية وعبد الملك بخاصة أو حول ما نقله علماء الرواية في العصرين الأموي والعباسي من أمثال ابن الكلبي والأصمعي وأبي عبيدة (64).

ومهما يكن فإن الرواية الشفوية لعبت الدور الرئيسي في حفظ الشعر الجاهلي أثناء مرحلة إنشاده، وكانت قنواتها المختلفة بإجماع القدامى والمحدثين- تتضافر للحفاظ على هذا الشعر وانتقاله من جيل إلى جيل، حتى وصل إلى مرحلة تدوينه.

ونحن عندما نزعم هذا، فإننا لا ننفي دورابة، أو نقول بانعدامها في المجتمع الجاهلي، لكن ما بين أيدينا من نصوص يمكننا الإطمئنان إليها- يرجع الإتجاه القائل بالرواية الشفوية كأداة لحفظ الشعر الجاهلي ونقله من جيل إلى جيل.

---

62- د / ابراهيم عبدالرحمن - الشعر الجاهلي، قضاياها الفنية والموضوعية ص 83.

63- د / طاهر مكي - دراسة في مصادر الأدب ص 18.

64- د / ناصر الدين الأسد - مصادر الشعر الجاهلي، وقيمتها التاريخية ص 232 - 237.

وإذا كانت هناك نصوص تؤكد كتابة بعض الأشعار - وهو ما عبر عنه الدكتور الأسد بتقييد الشعر- فإن بعضاً منها يؤكد أن الشعر الجاهلي، إنما كان يحفظ في مجموعته عن طريق الرواية الشفوية، ومن هذه النصوص ما تناقلته كتب التراث عن رواية أبناء الشعراء الجاهليين وأحفادهم لأشعارهم، وتقديمها للعلماء الرواة، أو الخلفاء أثناء العصر الإسلامي، كخبر سعيد بن غريز مع معاوية حين طلب منه إنشاده شعر أبيه السموءل (65) ونقل الرواة شعر حاتم الطائي عن ابنه عدي (66) وأخذ العلماء الرواة شعر متمم بن نويرة عن حفيده ابن داود (67).

ومن هذه النصوص أشعار جاهلية تذكر صراحة ذبوع الشعر وانتشاره عن طريق الرواية الشفوية، منها قول المسيب بن علس:  
فلاهدين مع الرياح قصيدة ❖❖ مني مغلفة إلى القعقاع  
ترد المياه فما تزال الغربية ❖❖ في القوم بين تمثل وسماع (68)  
ومن هذه النصوص الصحيحة كذلك قول عميرة بن جعيل نادماً على هجاء قومه لذبوعه وانتشاره:

ندمت على شتم العشيرة بعدما ❖❖ مضت واستنبت للرواة مذاهبه  
فأصبحت لا أستطيع دفعا لما مضى ❖❖ كما لا يرد الدر في الضرع حالبه  
(69)

وعلى الرغم من كل ما قدمناه من أدلة وأراء القدامى والمحدثين، تبقى قضية رواية الشعر الجاهلي في حاجة إلى مزيد من جهود الباحثين، حتي تظهر جميع حقائقها، وتغمرها الأضواء، فيكون ذلك مدخلا لعملية فرز حقيقية، تتيح للباحثين تنقية الشعر الجاهلي من الشوائب التي علقته به على مر العصور.

- 
- 65-أبو الفرج الأصفهاني - الأغاني 3 / 130 ط دار الكتب.  
66-أبو حاتم سهل بن محمد السجستاني - كتاب المعمرين، تحقيق أمين الخانجي -  
ص 63، مطبعة السعادة، مصر 1905.  
67-محمد بن سلام الجمحي - طبقات فحول الشعراء - ص 40.  
68- التبزي - شرح الفضليات 1 / 300.  
69-ابن قتيبة الشعر والشعراء 2 / 654.